لويس التاسع فى الأسر

بقلم محمد سمير الصريانه

(فى صيف سنة ١٢٤٩ قاد لويس التاسع الحملة الصليبية السابعة الى مصر فى أسطول ضخم على ظهره أكثر من ٠٠٠ ، ٥٠ من الصليبيين ؛ فاستولى على دمياط ، الميناء المصرى العظيم فى ذلك الوقت ، وأوغل فى البلاد محاذيا فرع النيل الشرقي حتى بلغ المنصورة ، وهناك دارت عليه وعلى جنده الدائرة ، فابيد جيش الصليبيين أوكاد ، ووقع لويس التاسع نفسه فى الاسر ، واقتيد إلى دار الوزير فخر الدين بن لقمان بالمنصورة ، حين كانت المخابرات دائرة بين الجيشين حول شروط التسليم ٠٠٠

وكان على عرش مصر فى ذلك الوقت ، شجرة الدر ، زوجة الملك الشهيد: الصالح نجم الدين أيوب)

كانت الشمس قد غابت ولكن السماء لم تزل مصطبغة بلون الشفق ، حين أرسى زورق صغير على شاطىء المنصورة ، فهبطت فيه سيدة ملثمة تخب فى ثياب فضفاضة قد سترتها من قمة الرأس إلى إخمص القدم ، فلا يبدو منها إلا عينان تبصان فيهما قلق وريبة ، ثم هبط وراءها من الزورق شابان فارعان فى ثياب الفرسان لهما سمت ومنظر وفى عيونهما مثل مافى عينى السيدة من الريبة والقلق ، وكأنما أرسى الزورق على هذا المكان من ذلك الشاطىء فى هذه الساعة من الليل ، لموعد قد حدد بدقه ، فلم تكد السيدة والشابان يهبطون إلى الأرض حتى أقبل شابان فى ثياب الحرس السلطانى ، فمثلا بين يدى السيدة وانحنيا انحناءة خفيفة للتحية ، ثم استدارا إلى الطريق ، ومشيا تتبعهما السيدة وزميلاها ، لم يتحدث أحد منهم إلى أحد ، كأنما هى خطة مرسومة قد عرفها كل واحد من الخمسة تفصيلا فلا حاجة به الى أن يسأل ولا أن يجيب . ومشت

السيدة يسبقها شابان ويتبعها شابان كأنما يقيس كل منهم خطوته حتى لا يتأخر عن موضعه من زملائه شيئا أو يتقدم ، على أن السيدة فيما يبدو لم تسلك ذلك الطريق من قبل منفردة ولا تصاحبه ، فقد كانت حركة رأسها فى ذلك الطريق تنبىء عن رغبتها فى أن تحقق النظر فى كل ماتقع عليه عينها صور الطريق ، أو لعل ذلك كان مظهراً من مظاهر القلق النفسى الذى يبدو فى نظرة عينيها .

وظلوا يمشون حتى انتهوا إلى بناء قائم فى طرف المدينة ، قد انبسط بين يديه فناء واسع وقام على بابه بواب غليظ العنق عريض الصدر فى عينيه جد وصرامة ، وفى وسطه منطقته قد تدلى منها خنجر فى جراب لا يبدو منه إلا مقبض عاطل من التمويه والزخرف ، فلم يكد يقترب منه هؤلاء النفر الخمسة حتى خلى مكانه إلى جانب الباب ليفسح لهم الطريق ، فلما صاروا بازاء الباب دفع أحد الشابين مصراعه بيده فانفتح ، ثم وقف ووقف زميله وانفرج بينهما طريق نفذت منه السيدة إلى الباب يتبعها الفارسان الشابان ، ثم انصفق وراءهم الباب ...

وكان لويس التاسع جالسا فى جانب من الغرفة على حشية منصوصة على بساط ذى تصاوير ، وقد أسند ظهره إلى وسادة على الحائط ، حين سمع على الباب طرقا خفيفا ، فقال فى صوت خافت كالهمس :

— ادخل ...

فدخلت السيدة وخلفت الشابين ينتظران خلف الباب ، فلم تكد تتوسط الحجرة حتى رفعت عن وجهها اللثام ونضت عن جسدها ذلك المعطف السابغ ، فلم يكد يراها لويس حتى صاح فى لهفة وقلق :

— مرجريت ! ماجاء بك ؟

وهب واقفا ، ثم اندفع إلى زوجته مشوقا قلقا قد توزعته الخواطر واختلطت به مذاهب الفكر .

قالت مرجريت فى هدوء :

— جئت لأقيم معك فى هذا الأسر يالويس ، حتى يأذن الله بالفرج !

— ماذا ؟ أتبلغ الغلظة بهؤلاء الأوغاد أن يقودوا الى الاسر مرجريت

دى بروفانس لأن زوجها كان معهم فى حرب مشروعة ؟

— رويدك يالويس ، فما قادنى أحد إلى الأسر ، وإنما استأسرت لهم طائعة لأونس وحشتك ياحبيبى !

- أنت ! تستأثرين لهؤلاء الكفار طائعة من أجلى يامرجريت ؟

- من أجلك يالويس ، فما تطيب لى الحرية وأنت فى وحشة الأسر لاتجد من يؤنسك ويسرى عنك ، فهل يسوءك يالويس أن تشاطرك زوجتك آلامك ، لتنال معك من نعمة السماء أجر الجهاد والصبر ؟

« الآلام .. والجهاد .. والصبر .. » ما أعظم ما تصفين يامرجريت وما أقل ما تستحق من الأجر ، أما وقد كان ما ترين فانى لم أفعل شيئا إلا أن سفكت دمُ عشرات الآلاف من أهل الصليب ، فعلى رأسى هذه الدماء جميعا يامرجريت !

— تلك إرادة السماء يا لويس ! وماذا كنت تملك أن تفعل غير مافعلت؟

— كنت أملك أن أموت على صهوة جوادى وفى يدى سيفى يقطر من دم هؤلاء الكفار !

— ومن يثأر لك ولأولئك الآلاف لو كان ذلك يا لويس ؟

- وهل تأملين يا مرجريت أن أعود إلى الحرية فاثأر لأولئك الآلاف؟

- ستعود إلى الحرية يا لويس ، وتعتلى صهوة جوادك ، وتروى ظمأ سيفك من هؤلاء الكفار ، وتثأر لمن قتلوا من الشهداء !

- هيهات يا مرجريت أن يطلق هؤلاء المسلمون لويس ملك فرنسا وقد حصل فى أيديهم ، إنهم ليعلمون مايحمل لهم فى صدره من البغضاء وما يتمنى لهم من أمانى السوء !

— بل سيطلقون سراحك يا لويس إذا أديت لهم ما يطلبون من مال ، فهل جاءك أنهم قتلوا مليكهم ولم يستقر على عرشه بضعة أسابيع ، لأنه هم أن يسألهم فيم أنفقوا ما خلف أبوه من المال ؟ المال يا لويس هو الذى أغراهم

يمليكهم فقتلوه شابا فى عنفوانه ، وهو الذى يغريهم بأن يردوك إلى الحرية لتهيأ للثأر !

ـ ياليت يا مرجريت ! ولكن من ذا يدفع عنى ماقد يطلبون من الفدية ويداى مغلولتان ؟

ـ سيتبارى رعاياك من أبناء فرنسا ، والمسيحيون فى شتى بقاع الأرض ليدفعوا فدية القديس لويس ويردوا إليه حريته .

ـ آه ! ما أطيب قلبك يازوجتى المحبوبة ! إن المسيحيين وأبناء فرنسا على السواء يا مرجريت ، لايحبون لويس إلا حين يقودهم إلى المغانم ، أما لويس الأسير فى دار موحشة من بلاد الكفر ، فليس يخطر على بال أحد أن يفتديه بدم أم مال . أم حسبت كل هؤلاء الآلاف الذين كان يقودهم لويس من مرسيليا إلى دمياط فالمنصورة كانوا يتبعونه لشىء غير طلب الغنيمة والمجد؟

ـ أوه ؟ أذلك قولك يا لويس ؟

طأطأ الملك الأسير رأسه فى انكسار وهو يقول فى صوت خافت كأنه بين يدى قسيسه يعترف بما أسلف من خطايا :

ـ نعم يا مرجريت ، لقد خرجنا باسم الصليب نطلب المجد فى الأرض فتحققت فينا مشيئة الرب وانتهينا إلى الرأس والهوان والمذلة !

قالت الملكة فى همس :

ـ لله شجرة الدر ! كأنما كانت تقرأ فى لوح مسطور وراء الغيب ماسمعته أذناى الساعة !

ـ ماذا يامرجريت ؟

ـ لا شىء يا لويس ...

ـ ولكن كلمات هامة كانت تبرق على شفتيك ...

ـ كنت أعيد ما وعته أذناى من حديث شجرة الدر .

ـ شجرة الدر ؟

ـ نعم ، ملكة مصر والشام ووارثة عرش صلاح الدين .

ـ أو صارت ملكة ؟

ـ نعم ، وإنها لأهل لما بلغت !

ـ وماذا وعته أذناك من حديثها !

ـ ما كنت تقوله لى الساعة يا لويس ...

ـ لم أفهم ما تعنين يا مرجريت .

ـ قالت لى : إنما خرجتم باسم الصليب تطلبون المجد والغنيمة ، فحق عليكم أن تنتهوا إلى الأسر والهوان والمهزلة !

ـ كذا قالت ؟

ـ نعم ، وكدت أرد عليها قولها وأترك مجلسها غير معتذرة .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم كظمت غيظى واحتملت اللطمة من أجلك يالويس .

ـ من أجلى أنا ؟

ـ نعم ، فما سعيت إلى لقائها إلا لأسألها بما جبلت عليه كل أنثى من العطف والرحمة ، أن تأذن لى فى لقائك والتحدث إليك ساعة ، وقد أذنت لى أن أحضر إليك تحت الليل فى حراسة اثنين من فرسان الداوية ، وأصحبتنى اثنين من حراسها ليدلانا على الطريق ويدفعا عنا ما قد يعترضنا من شر العامة ، فإن شئت يالويس بقيت إلى جانبك فى هذا المعتقل حتى يأذن الله بالفرج .

صمت الملك برهة يفكر ، ثم رفع رأسه قائلا :

ـ ولكنى لا أشاء يامرجريت !

ـ لماذا يا حبيبى .

ـ لأنك تستطيعين فى حريتك أن تسدى إلى يدا ، إذا رضى المسلمون أن أفتدى نفسى بمال .

ـ وإذن فأنت ترى أن أغود إلى دمياط لأحتال فى جمع ما قد يطلب المسلمون من مال الفدية ؟

- نعم ، وإلى اللقاء يا مرجريت !

- إلى اللقاء يا لويس !

وعادت الملكة أدراجها ، وعاد الملك فجلس على حشيته مستندا إلى وسادة على الحائط يفكر وانصفق الباب وراء الثلاثة ، وتقدم الحرسيان السيدة الملثمة على الطريق ويتبعها الفارسان حتى انتهوا إلى شاطىء النيل ، وهبطت السيدة إلى الزورق ثم تبعها الشابان ، فانساب الزورق على سطح الماء مبحرا إلى الشمال .